مقياس: تاريخ الغرب الإسلامي في العصر الوسيط

الدكتورة وسلوق خامسة محمد خيضر بسكرة

التحولات العمرانية في بلاد الغرب الإسلامي بعد الفتح الإسلامي

تمهيد:

بلاد الغرب الإسلامي اختلف كثيرًا في تحديدها ففي العقود القديمة سميت بليبيا، حيث يقول هيرودوت أن ليبيا هي كل ما يوجد غرب مصر إلى غاية البحر المحيط، وعند وصول الرومان قسمت إلى أربع مناطق وأطلق اسم إفريقيا الرومانية على قرطاج ونوميديا على وسطها وموريتانيا على غربها وجيتوليا على الجزء الجنوبي.

بوصول الفتح الإسلامي إلى المنطقة أطلقوا عليها اسم بلاد المغرب على أساس أنها توجد غرب مراكز الخلافة الإسلامية التي كانت في المشرق ومع وجود اختلاف بين المؤرخين والجغرافيين في تحديد الحد الغربي للمنطقة هل هو برقة أو منطقة كالإسكندرية، وهناك من يدرج الأندلس (ابن حوقل ضمن بلاد المغرب) ضمن بلاد المغرب وحتى أرض السودان (القيرواني) بينما ابن خلدون يفصل الأندلس ومصر وبرقة.

1- الوضع العمراني في بلاد المغرب قبل مجيء الإسلام:

ينكر الكثيرون تمدن بلاد المغرب أي وجود مدن وحواضر، انطلاقا من أن التعمير كان منذ الألف الثامنة ق.م (8000 ق.م) في بلاد ما بين النهرين، هذا ليس خاص ببلاد المغرب فقط بل بحركة التعمير في كل مناطق العالم، وتشير المصادر إلى أن البربري سكن الخيام التي كانت تصنع من الجلد المحبوك بالأسل والبروق (أنواع من النباتات) كما إستعملوا الكهوف والمغارات الطبيعية أو التي تحفر في قمم الهضاب والجبال، كما أسس الإغريق مدينة قورينا بالقرب من برقة، والكثيرين يربطون حركة التعمير في بلاد المغرب بوصول الفينيقيين وتأسيس العديد من المدن كمراكز تجارية أقدمها أوتيكا (1100 ق.م) وليكسوس وتيماتيريون (المهدية) وهايكوسيوم ورأس صولوئيس... مع الإشارة إلى أن هذه المدن والمراكز الحضارية تقل كلما اتجهنا نحو الداخل حسب وصف استرابون وبلين وبوصول القرطاجيين ازدهرت حركة العمران خاصة قرطاج التي أصبحت إمبراطورية البحر، ورغم ما أصابها من تخريب وتدمير مع وصول الرومان إلى المنطقة إلا أننا نلاحظ نشاط كبير لحركة العمران من خلال البقايا الأركيولوجية التي تؤكد ذلك، فظهرت الكثير من المدن مثل قرطاج الرومانية ودوقا ومكثر وتاموقادي وباغاي وسيرتا وسيقا وطنجيس وليلي... ذات الطابع المعماري الهلنستي الروماني (الحجر المصقول) أرضية مكسرة بالفسيفساء بصور حيوانية ونباتية وسقوف بالحجارة الكلسية أو القرميد.

عند الفتح الإسلامي للمنطقة والذي انطلق من المناطق الداخلية الصحراوية دون الاقتراب من السواحل وهذا لسببين أن البيزنطيين يتمركزون في المناطق الساحلية، ولأن العرب آتين من منطقة صحراوية فتمركزوا في مثل هذه المناطق ببلاد المغرب وما يسجل في هذا الخصوص أن المسلمين في بداية الفتح على عهد عمر بن العاص أنه رفض تقسيم المدن حسب ما أمر به عمر بن الخطاب وأمر بأخذ الجزية من أهل الذمة لذلك عمرو بن العاص صالح أهل برقة على الجزية وعاد إلى مصر (على 13 ألف دينار يبيعون فيها من أبنائهم ومن اختار بيعه)، واستمر الفتح بهذا الشكل إلى غاية زويلة.

في عهد عقبة بن نافع نجده قد استعمل العنف والقوة ضد أهلها مثل ما فعله في مدينة ودان (ليبيا) حيث قطع أذن شيخها وعاد بملك جرمة (ليبيا) وخرب مدينة دكرور انتقاما من أبي المهاجر وحاصر مجانة وباغاي وتيهرت ثم انتقل إلى طنجة، ما يسجل في هذا الميدان أن عقبة لم يكن يفتح المراكز المحصنة شمال الصحراء ويكتفي بالانتصار خارج أسوار المدن ولم يعمل على إخضاع المدن، الشيء الذي ساعد على تحصن أهلها (البربر والبزنطيين بالأسوار وتحضرهم للمقاومة) نفس الشيء حدث في عهد خليفة عقبة وهو زهير بن قيس البلوي، حيث كان العمل على الوصول بالإسلام إلى أقصى حد.

بوصول حسان بن النعمان إلى بلاد المغرب نجده بدأ في فتح المدن، وكانت البداية بقرطاج سنة 74هـ/693م لتستعاد من طرف الإمبراطور البيزنطي ليونتسيوس بأسطول بحري مستغلاً انهزم حسان أمام الكاهنة ليستعيدها من جديد سنة 79هـ/698م حيث وجدها شبه مخربة حسب جوليان، وخربها المسلمون (حسان) حسب النويري لأنه وجد صعوبة كبيرة في فتحها (استعمل المنجنيق).

في هذا المجال تبرز لنا نقطة هامة وهي تخريب المدن في بلاد المغرب هل المسلمين هم من قام بذلك أم البربر، وهذا خاصة في عهد حسان مع العلم أن المصادر تؤكد أن بلاد المغرب كانت ظلاً واحدا من طرابلس إلى طنجة وقرى متصلة (القيرواني، النويوي، البلاذرى، ابن عذاري...).

هناك من يذهب إلى أن الكاهنة هي من خربت المدن لاعتقادها أن العرب يريدون المدائن والذهب (النويري، الدباغ) والبربر يريدون المزارع والمراعي.

هناك من يرى أن حسان هو من خرب المدن اقتداء بسنة النبي (ص) أنه أثناء صراعه مع يهود بني النضير، قام هؤلاء بتخريب ديارهم كما أمر النبي بتقطيع نخيلهم وحرقه وبإجلائهم عن أرضهم وعمرها المسلمين، وكذلك في صراعه مع بني قريضة فقد قتل الرجال وسبى النساء والذراوي أي ضرورة حربية.

كذلك حسان كان ملزم بالمبدأ الإسلامي الإسلام أو الجزية أو الحرب.

2- المدن الإسلامية ببلاد المغرب:

بداية تأسيس المدن في بلاد المغرب كان نتيجة لأغراض سياسية وعسكرية ثم مراكز للحكم، وبسبب الكثير من الصراعات التي عرفتها السلطة الإسلامية في المشرق نجد ذلك ينعكس على بلاد المغرب، مما أدى إلى ظهور الكثير من العواصم التي لم تصبح تابعة دائما للخلافة بالمشرق كإفريقية التي أصبحت تحت سيطرة عبد الرحمان بن حبيب الذي كان تابعا للأمويين ثم العباسيين.

الدكتوره وسام سلوق جامعة محمد خضر بسكرة

- نكور أنشأ بها صالح بن منصور إمارة ساحلية مستقلة.
- برغواطية التي أسسها صالح بن طريف.
- بتلمسان إمارة خارجية مبكرة على يد أبي قرة اليفرني.
- القيروان تابعة للمشرق.

فاس عاصمة الأدارسة.

إمارة تاهرت الإباضية.

- إمارة سجلماسة الصفرية.

أي يمكن القول أنه ظهر ببلاد المغرب نظام المدن الدول، بالنسبة للمدن التي أسست على أرض بكر فقط روعي فيها التخطيط الإسلامي العام المسجد في الوسط، أما القديمة منها فقد ظلت منتظمة على الطريقة الرومانية-البيزنطية القديمة مع إدراج مؤثرات إسلامية ببناء المسجد وتنظيم المعاملات والبيع والشراء من خلال الحسبة والقضاء وغيرها.

الدكتوره وب شلـــوق جامعة محمد خيضر بسكرة